﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: 135]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ندبُ اللهِ إلى المسارعة للتوبة والاستغفار

بعد أن ذكرت الآيةُ السابقةُ أنَّ من صفات المتقين الإنفاقَ في السَّرَّاء والضَّرَّاء وكظمَ الغيظ والعفوَ عن الناس؛ ذكرت هذه الآيةُ أنَّ من صفات المتَّقين - أيضًا - أنَّهم إذا وقعوا في معصية تذكَّرُوا مباشرة أوامر الله سبحانه، فاستغفروا لذنوبهم، ولم يُصِرُّوا على خطئهم، فسارعوا إلى التَّوبة والاستغفار؛ لأنَّ المُذْنِبَ إذا تابَ عَنِ الذَّنْبِ صارَ حالُهُ كَحالِ مَن لَمْ يُذْنِبْ قَطُّ في اسْتِحْقاقِ المَنزِلَةِ والكَرامَةِ عِنْدَ اللَّهِ، ولَمَّا نَدَبَ تَعالى في الآيَةِ الأُولى إلى الإحْسانِ إلى الغَيْرِ، نَدَبَ في هَذِهِ الآيَةِ إلى الإحْسانِ إلى النَّفْسِ، فَإنَّ المُذْنِبَ العاصِيَ إذا تابَ، كانَتْ تِلْكَ التَّوْبَةُ إحْسانًا مِنهُ إلى نَفْسِهِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٰحِشَةً﴾: الفاء والحاء والشِّين: كلمةٌ تدلُّ على قبحٍ في شيء وشَناعة، ومن ذلك: الفحش والفحشاء والفاحشة، يقولون: كلُّ شيء جاوز قدره، فهو فاحش، ولا يكون ذلك إلَّا فيما يُتكرَّه، وأفحش الرجلُ؛ إذا قال الفحش[2]، والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، وكثيرًا ما تَرِدُ بمعنى الزِّنى، وأصله: مجاوزة الحدِّ في السُّوء، ويمكن أن تطلق على غيره، كالبخيل ونحوه؛ لأنَّ نفس

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/368.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فحش).

البخيل مشحونةٌ بمشاعر حادَّةٍ قبيحةٍ نحو الآخرين[1] وإذا ورد معنى الفاحشة بأنَّه الذَّنب الكبير؛ فإنَّ ظلم النَّفس: هو الذَّنب الصَّغير.

2) ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾: الظُّلْمُ عند أهل اللُّغة وعند كثير من العلماء: هو وضع الشَّيء في غير موضعه المختصِّ به؛[2] إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمَّا بعدول عن وقته أو مكانه، والظُّلْمُ: يقال في مجاوزة الحقِّ الذي يجري مجرى نقطة الدَّائرة، ويقال فيما يكثر، وفيما يقلُّ من التَّجاوز؛ ولهذا يستعمل في الذَّنب الكبير، وفي الذَّنب الصَّغير[3].

3) ﴿ذَكَرُواْ﴾: الذِّكر: خلاف النِّسيان[4]، وهو هيئة للنَّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتضيه من المعرفة، وهو كالحفظ، إلَّا أنَّ الحفظ يقال؛ اعتبارًا بإحرازه، والذِّكر يقال؛ اعتبارًا باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشَّيء: القلب أو القول؛ ولذلك قيل: الذِّكْر ذِكْرَان: ذِكْرٌ بالقلب، وذِكْرٌ باللسان، ومن ذِكْر القلب ذكرٌ من نسيان، وذِكْرٌ لا عن نسيان، بل عن إدامة حفظ[5].

ومعنى ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾: أيْ: تَذَكَّرُوا حَقَّهُ العَظِيمَ ووَعِيدَهُ، أوْ ذَكَرُوا العَرْضَ عَلَيْهِ، أوْ سُؤالَهُ عَنِ الذَّنْبِ يَوْمَ القِيامَةِ أوْ نَهْيِهِ أوْ غُفْرانِهِ، أو ذَكَرُوا جَمالَهُ فاسْتَحْيَوْا، وجَلالَهُ فَهابُوا، أو ذَكَرُوا ذاتَهُ المُقَدَّسَةَ عَنْ جَمِيعِ القَبائِحِ وأحَبُّوا التَّقَرُّبَ إلَيْهِ بِالمُناسِبَةِ لَهُ بِالتَّطْهِيرِ مِنَ الذَّمائِمِ[6].

4) ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ﴾: الاستغفار هو: طلب المغفرة، في اللغة، بمعنى: السَّتر[7]، وهو يستعمل في ستر الذُّنوب وعدم المؤاخذة بها، وطلب الاستغفار بعدم المؤاخذة عن الذَّنب لا يصدر إلَّا عن ندامة ونيَّة الإقلاع عن الذَّنب، وعدم العودة إليه؛ لذلك كان الاستغفار في مصطلح، بمعنى: التَّوبة[8]، وإلَّا لم يكن له معنًى أن يستغفروا ولا نيَّة للإقلاع، ولا ندم على ما فرط منه.

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل (فحش).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(3) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل (ظلم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(5) الراغب، المفردات: (ذكر).
(6) الآلوسي، روح المعاني: 2/275.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/92.

5) ﴿لِذُنُوبِهِمْ﴾: كلمة الذَّنب، بمعنى: المعصية، وأصله: الأخذ بذَنَبِ الشَّيء، أي: مؤخَّرته، وصار يستخدم في كلِّ فعل يستوخم عاقبته، ولأصل هذه الكلمة في اللُّغة عدَّة معانٍ[1]، وذكر الرَّاغب: أنَّ الذَّنب يستخدم لما يستوخم عقباه؛ اعتبارًا بذنب الشَّيء، وكلُّ ما في القرآن من هذا التركيب فهو (ذَنْب) وجمعه (ذُنوب)، بمعنى الإثم والجُرْم والمعصية[2].

6) ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ﴾: الإصرار من الصَّرِّ، وهو الشَّدُّ، ومعناه: العزم على الشَّيء والثَّبات عليه،[3] وذكر الراغب: أنَّه التعقُّد في الذنب، والتشدُّد فيه، والامتناع عن الإقلاع عنه[4]، وفي معنى الإصرار: ذكر ابن الجوزيِّ أنَّ للمفسِّرين ثلاثة أقوال: الأوَّل: مواقعة الذنب عند الاهتمام به، والثَّاني: أنَّه الثُّبوت عليه من غير استغفار، والثَّالث: ترك الاستغفار منه[5]، والأولى بالاعتبار في معنى الإصرار هو: الإقامة على الذَّنب من غير استغفار، فإنَّ الاستغفار يمحو الذَّنب.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

يذكر اللهُ اعتذارَ المحسنين لربِّهم من جِناياتهم وذُنوبهم، وهم الذين إذا ارتكبوا ذنبًا كبيرًا، أو ظلموا أنفسهم بارتكاب ما دونه؛ ذكروا وعدَ الله ووعيدَه، فلجؤوا إلى ربِّهم تائبين، طالبين ستر ذنوبهم، وعدم مؤاخذتهم بها، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها؛ فإنَّه لا يغفر الذُّنوب إلَّا الله، ولم يُصِرُّوا على ذنوبهم، وهم يعلمون أنَّهم مذنبون، وأنَّ الله يغفر الذنوب جميعًا[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل في الآية:

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مرفوع على الابتداء، أو معطوف على ما قبله من صفات المتَّقين،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذنب)
(2) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل (ذنب).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (صرر).
(4) الراغب، المفردات: (صر).
(5) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/417.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 67، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 67.

والعطف هو الأولى؛ لدلالة السِّياق عليه، أي: إذا فعلوا ذنبًا كبيرًا أو صغيرًا؛ ولإنزال التَّغاير في الصّفات منزلة التَّغاير في الذَّات، وهو أبلغ من تركه؛ لأنَّ العطف يوهم التَّغاير.

أوثـرَ العطف لدلالة السِّياق عليه؛ ولإنـزال الـتَّـغـايـر في الصّفات منزلة التَّغاير في الذَّات

بيان عطف الظُّلم على الذَّنب:

وفي عطف ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ على ﴿فَٰحِشَةً﴾ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ﴾ من عطف العام على الخاص[1]؛ تدرّجًا في الخطاب؛ مراعاةً لحال المخاطب، وطبيعته البشريّة.

عطف العام على الخاص تدرّجٌ في الخطاب

وجه إفراد الفاحشة وتنكيرها:

إفرادُ لفظ الفاحشة من عموم المعاصي؛ للتَّنبيه على قبحها، وتنكيرُها؛ لتهويل شأنها تحذيرًا منها[2]. واستغراقًا لأنواعها، وتعبيرًا عن عمومها.

الإفـرادُ تنبيهٌ عـلى قـبـحـهـا، وتـنـكـيـرُهـا؛ تـهـويـلٌ منها وتـحـذيـرٌ، واستغراقٌ

الفرق بين الفاحشة وبين ظلم النفس:

فرّقوا بين الفاحشة وبين ظلم النفس من وجوه: الأول: الفاحشة ما يكون فعله كاملا في القبح، وظلم النفس: هو أيّ ذنب كان مما يؤاخذ الإنسان به. والثاني: أن الفاحشة هي الكبيرة، وظلم النفس. هي الصغيرة، الثالث: الفاحشة: هي الزنا، وظلم النفس: هي القبلة واللمسة والنظرة، وهذا على قول من حمل الآية على السبب الذي رويناه، ولأنه تعالى سمى الزنا فاحشة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: 32][3].

الـفـاحـشـة من كبائر الذنوب، وظـلـم الـنّـفس من صغائرها

بلاغة الإيجاز في قوله: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾:

معنى: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: بألسنتهم عند الذُّنوب، أو استحضروه بقلوبهم، فتذكَّرُوا حقَّه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء، أو

أوجـزَ مستغنيًا بالمذكور ليجمع معنيي الدعاء بـالـلـسـان، واسـتـحـضـار القلب

(1) المطعني، بلاغة الاستفهام في القرآن الكريم: 1/181.
(2) المطعني، بلاغة الاستفهام في القرآن الكريم: 1/181.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/416، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/368.

ذكروا وعيده وعقابه[1]، لكنَّ اعتبار أنَّ ذكرهم بالقلب هو الأولى والأنسب؛ لأنَّه الذي يتفرَّع عنه طلب المغفرة[2]. وهذا فيه إيجاز بالحذف؛ ليجمع المعنيين، ويحثّ على التوجّهين.

نكتة العطف بالفاء في: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ﴾:

في العطف بالفاء؛ حثٌّ على سرعة التوبة، وبيانُ فضلِ الاستغفار

والفاء في قوله: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذكرَه تعالى مستتبعٌ للاستغفار لا محالة[3]، وأنّ قوام الذكر الاستغفارُ، وفي العطف بالفاء؛ حثٌّ على سرعة التوبة، والرجوع إلى الله.

بلاغة الاستفهام:

دلالة الاستفهام إنكار ونفي؛ لتوهُّم الوقوع عند من يقع عنده هذا التَّوهُّم

الاستفهام في قوله: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هو للإنكار والنَّفي، والتَّعريف للجنس، أي: لا يغفرُ جنسَ الذُّنوبِ كبيرها وصغيرها أحدٌ إلَّا الله. ودلالة الاستفهام على النَّفي بهذه الصِّيغة أبلغُ وأقوى؛ لإيذانه بأنَّ كلَّ أحدٍ ممَّن له حظٌّ من الخطاب يعرِف ذلك الانتفاءَ، فيسارعُ إلى الجواب به، والمرادُ به: وصفُه سبحانه بغاية سَعةِ الرَّحمةِ وعمومِ المغفرةِ[4].

وهذا الإنكار أوالنَّفي، لا لإنكار الواقع ونفيه، ولا لإنكار الوقوع، ولكنَّه إنكار ونفي؛ لتوهُّم الوقوع عند من يقع عنده هذا التَّوهُّم؛ إذ لا أحد من النَّاس يدَّعي غفران الذنوب[5].

فائدة التعبير عن المغفرة بالمضارع:

فائدة صيغة المضارع تجدُّد المغفرة من الله، ودوامها

وصيغة المضارع ﴿يَغۡفِرُ﴾ في قوله: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ للدلالة على تجدُّد المغفرة من الله، ودوامها لمن يُقْبلُ عليه بها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/86.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/92.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/86.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/86.
(5) المطعني، بلاغة الاستفهام في القرآن الكريم: 1/181.

بلاغة إظهار لفظ الذُّنوب في موقع الإضمار:

في إظهار لفظ الذنوب، مطامنةٌ، وتعريضٌ، وأنَّه تعالى لا يتعاظمه غفرانُ ذنبٍ

أظهر لفظ الذُّنوب في موضع الإضمار، فلم يقل: ومن يغفرها، عناية بشأنها[1]، ولمطامنة العبد أنَّها لو بلغت عنان السماء، ثمَّ لقي الله لا يشرك به شيئًا للقِيَهُ الله بِقُرابها مغفرة، ولبيان أنَّ الله لا يبالي بها بالة؛ رفعًا للإصر عن عبده، وأنَّه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، وهذا كالأوَّل دائر في فلكه، وفي الآية تعريض بمن يدَّعون مثل ذلك من رجال الكهنوت وعلماء النصرانية، ولو أنَّه أضمر هنا لم يلزم أن يكون معنيًّا به جميع المتقدم ذكره مما جمعته الآية في بيانها المعجز: ﴿فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ إذ جائز أن يحمل على أحدهما منفردًا، وليقابل استغفارهم منها مظهرة ذلك الاستغفار النَّاشئ عن ذكرهم الله، بغفرها لهم مظهرة؛ ليكون لهم كمال الإجابة وحصول المأمول على نحو ما دعوا به دون خفاء؛ ولأنَّهم أظهروها ذكرًا أمامه خائفين وَجِلين، فكان من إفاضة الأمن عليهم أن يذكرها لهم مغفرة، والقرآن مليء بالأسرار.

سرُّ تأخير نفي الإصرار على الاستغفار:

العناية بالمسارعة للاستغفار وعدم الإصرار على الذَّنب

أعقبَ ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. أي: ولم يقيموا على ذنوبهم غير مستغفرين، والواو في قوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ﴾ عاطفة أو حاليَّة، فتكون عاطفة على الاستغفار، أي: فاستغفروا، ولم يصرُّوا، وفيه تأخيرٌ لذكر عدم الإصرار على الاستغفار، علمًا أنَّ عدم الإصرار ينبغي أن يكون متقدِّمًا في الرُّتبة؛ وذلك لإظهار الاعتناءِ بشأن الاستغفارِ واستحقاقِه للمسارعة إليه عَقيبَ ذكرِه تعالى.[2].

حاليّة الواو بيانٌ لعلمهم بقبح المعصية، وأنَّ لهم ربًّا يغفرها

أو أنَّ الواو حاليَّة، أي: غيرَ مقيمين، وجملة: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملة حاليَّة، أي: عالمون بقبحه، وأنَّها معصية، وأنَّ لهم ربًّا يغفرها[3].

(1) الدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/547.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/87.
(3) القنوجي، فتح البيان: 2/335.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»